



منذ شهور ثمة مدینتان عربیتان فی الواجهة، كانتا من أهم وأجمل الحواضر، وأی تصفح عميق، أو حتى عاجل، يظهر تاریخهما الممتعن فی القدم، وقد كان مشترکاً فی بعض الحقب قبل أن تصبحا فی دولتين تفصل بينهما حدود رسمت قبل مئة عام، لكنهما أكملتا مسیرتهما الحیویتين، واستطاعتتا أن تبلورا تجربتين إنسانيتين متشابهتين. ولم يكن متوقعاً أن تividھما الظروف إلى أحلك الأيام، إلى ما قبل التاريخ والحضارة، وأن تستبد بهما أكثر العقول تخلفاً في هذا العصر، فتحاصر حلب وتعرض للتجویع ويحرم أهلها من أبسط مقومات الحياة، وتحتل الموصل من جماعة ظلامية فتخضع أهلها بالترهيب وتطبق عليهم أعنی أنماط التسلط، متنكرةً بالإسلام في أكثر الإساءات انحطاطاً للإسلام.

في أي مسار حضاري يعتقد به تلعب المدن دوراً الأبرز، فيها تتمازج التنوعات كافة، تحتك الأفكار والعقائد في تصارع وتقارب وانصهار، وتخلق الثقافات والتعايشات. قليلة هي المدن التي تشبه حلب والموصى، لكن معظمها يقع في المنطقة العربية، وساهم في صنع روح الشرق المتميّز، أو الذي -كان-. متميّزاً بتعايش أبناء الأديان والمذاهب، ولعله مندفعٌ بتهرور واستهتار نحو أفوله الكبير. حلب والموصى كانتا نموذجين لهذا التعايش.

لم تعد حلب التي نعرفها توجد إلا في الكتب والصور القديمة، في الواقع الإلكترونية أكثر ما يمكن أن تصادفه صورةً لكنيسة إلى جانب مسجد في الشارع نفسه، عاش أكرادٌ وأرمن مع الغالبية العربية، وعاش مع المسلمين مسيحيون في تجمعهم الكبير الثاني بعد بيروت من السريان واللاتين والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والكلدانيين. وفي الموصل، كان الأكراد والتركمان والأرمن إلى جانب العرب، وفيما كانت نينوى التاریخية المركز الأهم لجتماع السوريان وكنائسهم كافة، تقاسم المسلمون مع المسيحيين والصابئة المندائيين والأيزيديين والشبك الموروثات وتقلبات العصور.

لم تكن هذه الأقوام للتواصل وتستمر في العيش معاً إلا بفضل أمان اجتماعي تضافرت جهود الفئات في صنعه، أكثر مما كان ثمرة إرادة سياسية داخلية أو خارجية، بل إن ما تشهده حلب والموصى هو العكس، فالصراعات الدولية والإقليمية وظفت كل ما لديها في التكالب على العمran هنا وهناك، على كل الرموز التي تجذب أبناء الأديان والأعراق للبقاء في أرضهم رغم الإكراهات المتکاثرة. ولو لم يكن النموذجان هما المستهدفان في نهاية المطاف، لما جعلت قبلة المدن العراقية

والسورية بؤراً للمواجهات القتالية التي تستقطب الآن القوتين العظميين، لتجرباً أحدث ما في الترسانات الروسية والأميركية من أدوات القتل والتدمر. وليس صدفة أن تكون قوتان إقليميتان، إسرائيل وإيران، مستفيدين وحيدتين في سعيهما إلى النفوذ والهيمنة على العرب. ولا هي صدفة أن يكون تنظيم «داعش» الذي ساهم الجميع في صنعه هو الذي يستخدمونها لتمرير مصالحهم.

منذ نشأت إسرائيل وهي تعتبر أن تعايش الأقوام والأديان في الشرق الخطر الأكبر عليها، فجعلت من اختراقه أحد أهدافها الاستراتيجية. حاولت زعزعة النموذج اللبناني ولم تتوصل إلى تحطيمه، وإنْ لم يعد كما كان. دعمت المشروع الانفصالي لأكراد العراق، وشجعت على ترجيح الحكم الأقلية في سوريا، ليبقى هذان البلدان في حال صراعات مشتعلة أو كامنة قبل أن تصبح متفجرة. وفي سعيها إلى الهيمنة استنسخت إيران الكثير من الوسائل الإسرائيلية، خصوصاً في التغيير الديموغرافي في العراق وسوريا. ولم يعترض الروس والأميركيون على هذه المشاريع بل يتشاركون إدارتها ورعايتها.

العرب القطبية

المصادر: